عصر ماريا تيريزا (1717–1780)

د. وضاح نوفل*

(تاريخ الإيداع 19 / 1 / 2021. قبل للنشر في 9 / 6 / 2021)

□ ملخّص □

لقبت ماريا تيريزا بألقاب عديدة أهمها: الأميرة، الارشيدوقة، الملكة، الإمبراطورة، لكن أسمها بقي أشهر من ألقابها. جعلت ماريا تيريزا من فترة حكمها عصراً لازدهار الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" بفضل اصلاحاتها الشهيرة في كافة المجالات، بالإضافة إلى ذلك فقد تمتعت بالحنكة، والمهارة السياسية وعرفت كيف تستغل الزواج السياسي، وطبقته على أولادها وبناتها لتوثق التحالفات السياسية.

يحاول هذا البحث المعنون بـ "عصر ماريا تيريزا (1717–1780) تقديم لمحة عن حياتها، و توضيح السياسة الداخلية والخارجية لماريا تيريزا والاضاءة على أهم الأحداث والانجازات في فترة حكمها للإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" مع زوجها القيصر فرانس الأول ستيفان (1708–1765)، الذي هُمّش اسمه في أغلب الدراسات غير المتخصصة لأنه لا ينحدر من أسرة الهابسبورغ الإمبراطورية.

الكلمات المفتاحية : ماريا تيريزا – فرانس الأول – حرب الوراثة النمساوية – حرب السنوات السبع

*أستاذ مساعد، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق، سورية.

Era of Maria Theresa (1717-1780)

Dr. Wadah Noufal*

(Received 19 / 1 / 2021. Accepted 9 / 6 / 2021)

□ ABSTRACT □

Maria Theresa is named a lot of titles as Princess, Archduchess, Queen, and Empress; all of these titles had been held by Maria Theresa, however, her name was the most famous one. She made Her ruling era the prosperous era of the sacred Roman Empire of the German nation due to the noted reforms she made at all domains. Besides of that, Theresa was a stateswoman who knew how to utilize the political marriage and use it in the interest of her sons and daughters in order to strengthen the political alliances.

This research is an attempt to shed the light on the most influential events and achievements at Theresa ruling era. Theresa ruled with her husband, Caesar France Stephan l, the sacred Roman Empire of the German nation in 1708-1765; however, his name had been marginalized a most of non-specialty studies because he did not descend from the imperial household of the Habsburg family.

* **Assistant Professor, Department of History, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University, Syria.**

مقدمة:

تعد ماريا تيريزا (1717–1780) من أشهر النساء الأوروبيات اللواتي جسّدن ما يعرف بعصر الملكية المستنيرة، وأهم حاكمة من أسرة الهابسبورغ الإمبراطورية، لا بل الوحيدة من هذه الأسرة العريقة التي تربعت على عرش هذه الأسرة. هذه المرأة الكاثوليكية المتعصبة لمذهبها لم تغفل عينها عن أفكار التنوير التي عاصرتها، لذلك فعلت ما بوسعها لدفع عجلة الاصلاح في بلادها قدماً، فبدأت بإعداد جيش قوي مدرب، وضعت قوانين جديدة وحدَثت النظام الرقابي، واعتنت بالاقتصاد وعملت كل شيء لتنهض بوطنها إلى مصاف الدول المتفوقة في ذلك الوقت. هذا ولم يكن طريق ماريا تيريزا مُعبداً بالزهور فكان بانتظارها الكثير من التحديات الخارجية، و أولى هذه التحديات ظهور فريدريك الثاني (1712–1786) ملك بروسيا والمتعصب لمذهبه البروتستانتي كمنافس لها في الأقاليم الناطقة باللغة الألمانية، هذا الملك الذي أزعج ماريا تيريزا طوال حياتها باحتلاله لإقليم سيليزيا الذي كان يتبع لأسرة الهابسبورغ الإمبراطورية.

تمهيد:

كان الواقع السياسي الاقتصادي، والاجتماعي والثقافي في أوروبا في القرن الثامن عشر أكثر تعقيداً مما كان عليه في القرن السابع عشر، وذلك لأسباب عديدة أهمها: أنه في القرن الثامن عشر لم تبق هناك ملكية أو امبراطورية مسيطرة لوحدها بشكل منفرد كما كان عليه الحال في القرن السابع عشر عندما كانت المملكة الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر (1643–1715) مهيمنة بشكل كامل على السياسة في أوروبا. أما في القرن الثامن عشر فقد أصبحت كل من روسيا، وبريطانيا والنمسا بالإضافة إلى فرنسا في مستوى واحد وخاصة من الناحية العسكرية، وهذا يعني تعدد مراكز القوى بدلاً من تركزها في دولة واحدة، وسرعان ما دخلت بروسيا إلى مسرح الحياة السياسية الفاعلة في أوروبا وأصبحت بمصاف الدول الاخرى من كافة النواحي: السياسية والعسكرية والاقتصادية.[1]

في ظل ظروف سياسية لمليئة بالمشاكل والارهاصات توفي والد ماريا تيريزا القيصر شارل السادس (1685–1740)[2]؛ قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية"[3] في 20 تشرين الأول 1740 في مدينة فيينا دون أن يترك ولداً ذكراً يخلفه بعد وفاته، لتنقطع بذلك استمرارية سيطرة الأسرة الإمبراطورية الهابسبورغية على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الالمانية" بسبب عدم وجود وريث ذكر في هذه الأسرة العريقة التي استمر انتخاب الأباطرة منها، وبدون انقطاع منذ عام 1438 وحتى تاريخ وفاة القيصر شارل السادس 1740 أي على مدى أكثر من 300 عام. لذلك أصبحت ماريا تيريزا أكبر أخواتها المؤهلة الأولى لقيادة الأسرة الهابسبورغية بكل ما تملكه من مقاطعات وأقاليم، و لمواجهة الطامعين بأملاك أسرتها.[4]

---

[1]– المقرحي، ميلاد: تاريخ أوروبا الحديث 1453–1848، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي ط1، 1996، ص 262–263.

[2] –https://www.habsburger.net/de/personen/habsburger–herrscher/karl–vi

[3]– جرت العادة على تسمية (ترجمة) هذه الامبراطورية في الكتب العربية باسم "الامبراطورية الجرمانية المقدسة"، لكن لأن البحث يعتمد بشكل كبير على المراجع الألمانية ولأن اللغة الرسمية لهذه الامبراطورية هي اللغة الألمانية اختار الباحث الاسم الذي اعتمده المؤرخون الألمان لهذه الامبراطورية وهو: الامبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية".

[4] – Duchhardt, Heinz: Barock und Aufklärung, München 2007, S. 116.

ولادة وطفولة ماريا تيريزا:

لم تكن ولادة ماريا تيريزا في 13 أيار 1713 في فيينا خبراً سعيداً بالنسبة لوالديها(القيصر شارل السادس وزوجته اليزابيت كريستينا أميرة اقليم براونشفايغ)[5] اللذان كانا ينتظران مولوداً ذكراً بعد حوالي العام من وفاة ولدهم الأول الذي لم يبلغ من العمر سوى سبعة أشهر، هذا الطفل الذي ملأ عليهما الحياة والأمل بوراثة عرش القيصر شارل السادس.[6] ولأجل ذلك لم تقم الأفراح في الإمبراطورية ابتهاجاً بولادة ماريا تيريزا، حتى أن والدها القيصر شارل السادس كتب في 9 حزيران 1717 رسالة لوالدة زوجته بخصوص حزن زوجته بولادة ماريا تيريزا مضمونها "إن زوجتي لا تشعر بالسعادة بولادتها طفلة، لكني أقول أنها إنسان صغير وأتأمل أن نرزق بأولاد وفتيات في المرات القادمة"[7]

لا يوجد في المصادر المعاصرة لفترة ماريا تيريزا الكثير من المعلومات التفصيلية عن طفولتها، لكن من المؤكد أنها تلقت تربية عالية المستوى، ونشأت على الأصول والعادات الإمبراطورية في قصر والديها، وهذا كان له دور كبير الأثر على شخصيتها المتميزة.[8] تعلمت ماريا تيريزا في طفولتها دروس التاريخ، كالقصص الدينية وتاريخ الإنجيل وتاريخ الإمبراطوريات القديمة لكن معلوماتها كانت قليلة عن السياسة، والقانون والاقتصاد والتاريخ المعاصر لها، لكن على العكس من ضعف معلوماتها عن هذه الاختصاصات فقد استطاعت أن تمتلك موهبة تعلم اللغات، فقد أتقنت اللغة الفرنسية و تحدثتها بطلاقة كلغتها الأم الألمانية، عدا عن ذلك تكلمت اللاتينية والإيطالية بمهارة والقليل من الإسبانية.

لم تستهوِ ماريا تيريزا قط كتب الفلسفة بل أغرمت بالفن والموسيقا. ففي سن الخمس سنوات تعلمت الرسم والرقص بشكل رائع، وكانت موهوبة بالموسيقا كوالدها وعزفت القيثارة وغنَت بصوت جميل للغاية. في السابعة من عمرها وقفت في قصر والديها وقدمت اوبرا صغيرة ولاقت تصفيقا حاراً لمهارتها. ووصف أحد الحضور شخصية ماريا تيريزا في هذه الاوبرا بالاتي: "لم أر في كل حياتي أجمل وأروع منها وهي تغني وترقص"[9] وكان ابداعها المميّز على خشبة المسرح ملفتاً للاهتمام فهي كانت ممثلة عبقرية حيث كان باستطاعتها تأدية كل الأدوار بمهارة عالية وهذا ما أفادها لاحقاً في الأمور السياسية.

كانت ماريا تيريزا ذات العينين الزرقاوين الجميلتين، والوجه النضر مفعمة بالحيوية والمرح في صباها، ولم تعر اهتماما لثيابها في طفولتها، وحيَرت كل من كان يشاهدها، الشيء الوحيد المقلق بالنسبة لوالديها في طفولتها كان نحفها الواضح.[10]

لم ينعم الله على القيصر شارل السادس بولد ذكر يرثه على عرشه رغم أمله الدائم ورغبته الكبيرة، وكان قدره أن يرزق بطفلتين اثنتين فقط بعد ماريا تيريزا.[11]

لم يستسلم شارل السادس لقدره وأخذ يعد العدة لاجتياز أسوأ الاحتمالات،- وحتى قبل أن يرزق بطفل أو طفلة- للمحافظة على أملاك أسرة الهابسبورغ موحدة، فمنذ عام 1713 أصدر ما يعرف "المرسوم البرغماتي" (pragmatische Sanktion) ووافق عليه الأمراء الناخبون في الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية[12]،

---

[5] _https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf
[6] - Badinter, Elisabeth: Maria Theresia die Macht der Frau, Wien, 2017, S. 20.
[7] - Elisabeth: Maria Theresia...S. 21.
[8] - https://www.habsburger.net/de/personen/habsburger-herrscher/maria-theresia
[9] - Goldsmith, Margaret: Maria Theresa of Austria, London, 1936, P. 32.
[10] - Elisabeth: Maria Theresia...S. 23.
11_https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf
[12] - Gotthard, Axel: Das Alte Reich. 1495-1806, 2. Aufl., Darmstadt 2005, S. 13f.

وضَمِن بموجب هذا المرسوم عدم تقسيم إمبراطوريته والاعتراف بحدودها، وبأن ترث ابنته ماريا تيريزا أراضيه. وعلى أمل أن يرزق شارل السادس بولد يرثه على عرشه، طلب من ابنته ماريا تيريزا قبل زفافها أن توقع على تعهد بأن تتنازل عن التاج الملكي في حال رزق والدها شارل بولد ذكر، وبالفعل وقعت ماريا على هذا التعهد.[13]

زواج ماريا تيريزا من فرانس الأول ستيفان وتتويجه قيصراً:

عند الحديث عن فترة منتصف القرن الثامن عشر يتبادر إلى ذهن القارئ للتاريخ الأوروبي الحديث بشكل عام ولتاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" بشكل خاص اسم "الإمبراطورة" ماريا تيريزا والتي هي بحق سيدة تلك الحقبة الزمنية لما قامت به من انجازات، لكن يغيب عن ذهن كثير من القارئين والباحثين الدور المهم لزوجها فرانس ستيفان قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" 1745–1765 المنتخب والمتوج بالتاج الإمبراطوري، وسيحاول البحث أن يقدم عرضاً موجزاً عن هذا القيصر:

ولد فرانس ستيفان ابن ارشيدوق اللورين ليوبولد جوزيف في 8 كانون الأول 1708.[14] وتمتع بنسب عريق فهو حفيد القيصر فرديناند الثالث 1608–1657 (قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية منذ عام 1637 حتى 1657) عن طريق جدته، وأحد أحفاد الملك الفرنسي لويس الثالث عشر 1601–1643 عن طريق والدته. قبل وفاة ليوبولد رافقه ابنه فرانس ستيفان كابن وريث له في رحلته إلى براغ لحضور مراسم تتويج القيصر شارل السادس كملك على بوهيميا في مدينة براغ والتقى الارشيدوق ليوبولد و ولده فرانس ستيفان بالقيصر شارل السادس في 10 آب 1723، وفي براغ أيضا حصلت اللقاءات العائلية بين الطرفين فالتقى فرانس ستيفان بالقيصرة وبناتها وعلى رأسهن ماريا تيريزا، التي كانت تبلغ من العمر ست سنوات فقط،[15] وأثناء هذه الزيارة اتفق الارشيدوق ليوبولد والد فرانس ستيفان والقيصر شارل السادس والد ماريا تيريزا على تزويج فرانس وماريا لبعضهما البعض وأُبقي هذا الاتفاق سرياً.

أُرسِل فرانس ستيفان في سن الخامسة عشر من عمره 1724 إلى البلاط الهابسبورغي في فيينا،[16] وعامله القيصر شارل السادس كابن له، وكان فرانس ستيفان مسرورا بحياته في موطنه الثاني، واصطحبه القيصر شارل السادس معه في جميع رحلات الصيد التي قام بها، ورافق القيصر في كل المناسبات والاحتفالات. بقي فرانس ستيفان برفقة القيصر شارل السادس لمدة ست سنوات حتى وفاة والده ليوبولد في عام 1729، وعلى أثر ذلك توجب عليه العودة الى موطنه الأصلي. اصبح فرانس ستيفان ارشيدوقاً للورين خلفا لواده تحت اسم الارشيدوق فرانس الثالث وزار كل من الأراضي المنخفضة، وانكلترا، وبروسيا وكان ذلك بالتنسيق مع القيصر شارل السادس. وفي 12 شباط 1736 عُقد حفل زفاف فرانس و ماريا تيريزا في كنيسة أوغستين في فيينا، ومن المهم ذكره أن هذا الزواج لم يكن زواجاً سياسياً وحسب، بل كان زواج حب كبير بين الزوجين.[17] فقد أنجبا 16 مولوداً، 11 طفلة وخمسة أطفال، وكانا فخورين بذلك، وعلى الرغم من علاقات فرانس الأول ستيفان الغرامية مع بعض المحظيات، إلا أن ماريا تيريزا كانت تحبه كثيراً، وكانا سعيدين مع بعضهما البعض، وعندما توفي فرانس في عام 1765 كانا قد امضيا 29 عاماً كزوجين، وكتبت ماريا تيريزا عن زوجها

[13] - Elisabeth: Maria Theresia...S. 23f.

[14] -https://www.habsburger.net/de/personen/habsburger-herrscher/franz-i-stephan-von-lothringen

[1515] - https://www.habsburger.net/de/kapitel/franz-stephan-als-begruender-der-dynastie-habsburg-lothringen

[16] -https://www.habsburger.net/de/kapitel/franz-stephan-der-lothringer-wien

[17] _https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf

"لقد خسرت زوجاً وصديقاً وحبي الوحيد في حياتي"[18] وبعد موته ارتدت اللباس الأسود تعبيرا عن حزنها عليه حتى وفاتها.[19]

توفي القيصر شارل السادس والد ماريا تيريزا في 20 تشرين الأول 1740 بشكل مفاجئ، وعلى إثره اصبحت ماريا تيريزا الوريثة الشرعية لكل ممتلكات الأسرة الهابسبورغية.[20] لكنها وبناءً على بنود المرسوم الذهبي الذي أقر في عام 1356 في عهد القيصر شارل الرابع 1346–1378، و الذي نظم أمور انتقال الحكم في الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" وألية انتخاب القيصر،[21] فهي لا يحق لها اعتلاء العرش الامبراطوري لأنها انثى.

بعد وفاة القيصر شارل السادس خسرت أسرة الهابسبورغ الإمبراطورية لقب قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" هذا اللقب الذي حظيت به لمدة تجاوزت 300 عاماً، واحتاج إعادة هذا اللقب إلى الأسرة الهابسبورغية جهودا مضنية لتسليم فرانس ستيفان ارشيدوقق اللورين و زوج ماريا تيريزا وريثة الأسرة الهابسبورغية هذا المنصب على الرغم من أنه ليس هابسبورغياً صافيا.

ففي عام 1741 انتخب أمير بافاريا الناخب شارل ليكون قيصرا للأمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" وتوج بالتاج الإمبراطوري في عام 1742 تحت أسم شارل السابع، وكان هذا بمثابة ضربة عنيفة للأسرة الهابسبورغية التي لم تكن تملك وريثا ذكرا يمثلها. شاء القدر أن تكون فترة حكم القيصر شارل السابع قصيرة، فقد نشبت حرب بينه وبين قوات الأسرة الهابسبورغية واحتلت هذه القوات بافاريا، وطردت القيصر شارل السابع من ممتلكاته، ليتوفى مثقلا بهمومه في20 كانون الأول عام 1745.[22]

بعد وفاة القيصر شارل السابع تغيّرت موازين القوى في الإمبراطورية لصالح أسرة الهابسبورغ، فقد قررت بافاريا وبروسيا بعد مفاوضات صعبة معهما أن تعطي صوتيها الانتخابيين لأمير اللورين فرانس ستيفان زوج ماريا تيريزا وريثة الأسرة الهابسبورغية. وكان فرانس ستيفان "مرشح التعقل" ورغبة السلام بين الأطراف، لأنه كان بمثابة الحل الوسط، فهو صحيح صهر أسرة الهابسبورغ لكنه ليس هابسبورغياً بالولادة. اذاً لقد كان فرانس ستيفان بمثابة حل مؤقت حتى يستطيع ولده الأمير جوزيف الذي ولد عام 1741 أن يبلغ السن القانونية ليستطيع أن يرث والده على العرش الإمبراطوري. أُجريت مراسم انتخاب فرانس زوج الارشيدوقة ماريا تيريزا كقيصر للإمبراطورية بحسب العادات والقوانين المتبعة في الإمبراطورية، فكان انتخابه في مدينة فرانكفورت الألمانية في 13 أيلول 1745، وحصل فرانس على سبع أصوات مؤيدة له من أصل تسع أصوات للأمراء الناخبين في الإمبراطورية، وتوج حسب الأصول المنصوص عليها في المرسوم الذهبي في مدينة آخن الألمانية في 4 تشرين الأول من نفس العام،[23] ولقب من وقتها باسم القيصر فرانس الأول وغالبا ما أختصر أسمه بـ القيصر فرانس. لكن وبعد وفاته أضيف لاسمه لاحقة ستيفان، أي اصبح القيصر فرانس الأول

18 - https://www.dw.com/de/300-jahre-maria-theresia-strategin-mutter-reformerin-http-wwwmariatheresia2017at/a-37865602

19_https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf

20 - Duchhardt, Heinz: Altes Reich und Europäische Staatenwelt 1648-1806, München, 1990, S. 34.

21 - Zeumer, Karl: die Golden Bulle Kaiser Karls IV., Weimer, 1908, S. 110ff.

22 - Burkhardt, Johannes: Vollendung und Neuorientierung des frühmodernen Reichs 1648-1763, Stuttgart, 2006, S. 364, 372.

23 - Kotulla, Michael: Deutsche Verfassungsgeschichte, Vom Alten Reich bis Weimar (1495-1934), Berlin, 2008, S. 187.

ستيفان، وذلك لتمييزه عن حفيده فرانس الذي لقب بداية بفرانس الثاني عندما أصبح قيصراً لإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" وبعد عام 1804 لقَبَ بفرانس الأول قيصر النمسا.[24]

اصبح بإمكان الارشيدوقة ماريا تيريزا بعد تتويج زوجها فرانس الأول ستيفان بتاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية أن تحظى بلقب الإمبراطورة أو القيصرة ماريا تيريزا، لأنه وبحسب العادات فان زوجة الإمبراطور المتوج تدعى إمبراطورة.[25]

حرب الوراثة النمساوية 1740–1748

استناداً إلى "المرسوم البرغماتي" 1713 اصبحت ماريا تيريزا بعد وفاة والدها القيصر شارل السادس في عام 1740 ارشيدوقة النمسا و وريثة لكل أملاك أسرة الهابسبورغ، لكن هكذا مرسوم كان بحاجة لقوة عسكرية، ولإمكانيات مالية لضمان تنفيذه، وهذا ما افتقدته ماريا تيريزا عشية وفاة القيصر شارل السادس، واصبحت الارشيدوقة ماريا تيريزا في وضع خطير للغاية.[26] حيث استغل الملك البروسي فريدريك الثاني هذه الأوضاع وأعلن الحرب ضد ماريا تيريزا في 16 كانون الأول 1740، وتوغل في إقليم سيليزيا الهابسبورغي معلناً بداية حرب الوراثة النمساوية التي استمرت ثمان سنوات، وسرعان ما انخرط اعداء ماريا تيريزا والطامعين بأملاكها في هذه الحرب، فأعلنت كل من فرنسا وسردينيا واسبانيا وساكسونيا وبافاريا الحرب ضدها.[27] قسمت هذه الحرب الى قسمين القسم الأول استمرت فيه الحرب من عام 1740 حتى 1742 حيث وقعت ماريا تيريزا صلحاً مع بروسيا، وسميت هذه الحرب بحرب سيليزيا الأولى وكان من نتائجها: أن ماريا تيريزا تنازلت عن قسم كبير من سيليزيا. وفي عام 1743، توجت ماريا تيريزا في مدينة براغ كملكة على بوهيميا، وهذا خفف من وطأة هزيمتها أمام فريدريك الثاني ملك بروسيا. لكن الصلح مع بروسيا لم يستمر طويلا ففي آب 1744 بدأت قوات بروسيا هجوما عنيفا على بوهيميا لتبدأ ما عرفت بجرب سيليزيا الثانية التي استمرت حتى كانون الثاني 1745 حيث انتهت هذه الحرب بتوقيع صلح درسدن بين ماريا تيريزا و فريدريك الثاني، هذا الصلح الذي أُكِد فيه سيطرة فريدريك الثاني على سيليزيا، وبالمقابل اعترفت بروسيا بتتويج القيصر فرانس الأول ستيفان قيصرا للإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية"، واستطاعت ماريا تيريزا أن تثبت نفسها مع زوجها في ميدان السياسة الأوروبية[28] ، وانتهت حرب الوراثة النمساوية بين جميع المشاركين بها بتوقيع صلح آخن 1748.[29]

كانت نتيجة حرب الوراثة النمساوية بالنسبة لأسرة الهابسبورغ واللورين، أن ماريا تيريزا وزوجها استطاعا الحفاظ على القسم الأكبر من أملاك أسرة الهابسبورغ باستثناء سيليزيا. كما اظهرت هذه الحرب بروسيا كقوة منافسة في وسط أوروبا باعتراف جميع الأطراف.[30]

[24] - https://www.habsburger.net/de/kapitel/franz-stephan-als-kaiser-des-heiligen-roemischen-reiches
[25] _https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf
[26] - Vocelka, Karl: Geschichte Österreichs, Kultur- Gesellschaft- Politik, Wien, 2000, S. 154.
[27] - https://www.geschichtewiki.wien.gv.at/Maria_Theresia-
[28] - Duchhardt: Altes Reich...S. 35.
[29] - Vierhaus, Rudolf: Staaten und Stände vom Westfälischen bis zum Hubertusburger Frieden 1648 bis 1763, Berlin, 1984, S. 327.
[30] - https://www.habsburger.net/de/kapitel/der-oesterreichische-erbfolgekrieg

اصلاحات ماريا تيريزا:

أظهرت حرب الوراثة النمساوية ضعف الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" بشكل واضح وجلي. حيث بدت هذه الإمبراطورية كأنها قصر عظيم لكنه مصنوع من الرمال، وكان سبب هذا الضعف العام في الإمبراطورية أن آلية الادارة للجيش والدولة أصبحت قديمة عفى عنها الزمن، كذلك الأمر فإن الانحطاط الاقتصادي المتراكم للإمبراطورية جعل موضوع الاصلاح ضرورياً جداً. فبعد أن حصلت ماريا تيريزا على اعتراف أوروبي بها بعد توقيعها صلح آخن في عام 1748، بدأت مباشرة بإجراء اصلاحات شاملة لكل الادارات.[31] ففي سنوات حكمها الاربعين قامت بعدد كبير من الاصلاحات التي أدت إلى تطوير السياسة والاقتصاد والمجتمع.[32] كما حدَثت الجيش والنظام العسكري، والقضاء ونظام الشرطة، والنظام الصحي ونظام التعليم في المدارس، والأهم من ذلك أنها صححت النظام الضريبي في الإمبراطورية فألغت الاعفاءات الضريبية الممنوحة للنبلاء ورجال الدين، وضعت نظام ضريبي عادل. كما عمدت إلى ضغط النفقات والمصاريف واستثمرت ناتج التوفير لصالح الشعب.[33]

كانت أول الاصلاحات الفعلية التي طبقتها ماريا تيريزا في عام 1742 عندما قامت وبشكل غير معلن بتأسيس مجلس استشاري على رأسه المستشار في بلاطها، ومهمة هذا المجلس قيادة السياسة الخارجية للإمبراطورية بالإضافة إلى الاهتمام بشؤون الأسرة الهابسبورغية الإمبراطورية.[34] وبعد انجاز هذا الإجراء ركّزت ماريا تيريزا اهتمامها على اصلاح الشؤون الداخلية للإمبراطورية وبدا ذلك واضحا منذ عام 1748 حيث وضعت أسس الإدارة المركزية المختصة بالشؤون الداخلية، هذه الادارة اصبحت مسؤولة عن الأمور المالية، والسياسة الداخلية في أقاليم الإمبراطورية التي كانت من اختصاص محكمة القصر الإمبراطوري قبل ماريا تيريزا. وبعد ذلك اتجهت لإصلاح القضاء. ففي عام 1749 أسست المحكمة العليا المركزية، ويتبع لها كل المحاكم في الاقاليم، والعمل الأعظم الذي أنجز في عهدها فيما يخص القضاء هو توحيد قانون العقوبات ووضعه في كتاب خاص عام 1768. حيث وضعت عقوبات صارمة على كل من يرتكب الجريمة. وفي عام 1787 وضع قانون عقوبات جديد أقل قساوة من سابقه. وقامت ماريا تيريزا في عام 1776 وبتأثير من مستشاريها بإلغاء التعذيب في العقوبات.[35]

أما في مجال الشؤون العسكرية تقدمت عجلة الاصلاح بخطوات ثابتة وكان أول عمل في هذا المجال هو تأسيس اكاديمية ماريا تيريزا العسكرية في مدينة فيينا، حيث أُعتمِد في تأسيس هذه الاكاديمية على النظم العسكرية الأحدث في ذلك الوقت، وكانت مهمتها إنشاء جيل جديد من الضباط تستطيع الإمبراطورية أن تراهن على قدراتهم ومهاراتهم، وبالفعل سرعان ما أثبتت هذه التحديثات العسكرية فعاليتها في معركة عام 1757.[36] عدا عن ذلك حدّثت ماريا تيريزا نظام الشرطة القائم في الإمبراطورية، وجعلت مهمته حفظ الأمن في المدن والأرياف، وحماية الاسواق ومراقبة كل شيء، وفي البداية قسمت فيينا إلى أربعة أقسام، كل قسم فيه عدد محدد من عناصر الشرطة، وتم وضع رقم لكل منزل ليسهل عمل جهاز الشرطة.[37]

[31] - Vocelka: Geschichte Österreichs, S. 156.
[32] - Duchhardt: Barock und Aufklärung, S. 120.
[33]_https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf
[34] _https://www.habsburger.net/de/kapitel/die-maria-theresianischen-reformen
[35]_https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf
[36] _ https://www.habsburger.net/de/kapitel/die-maria-theresianischen-reformen
[37]_https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf

أما في مسيرة الاصلاح الاجتماعي فكان طموح ماريا تيريزا زيادة عدد سكان الإمبراطورية لما فيه من فائدة كبيرة في كافة المستويات، فإن زيادة عدد السكان يعني زيادة افراد الجيش، وبالفعل تضاعف عدد افراد الجيش في عهدها، ويعني أيضا زيادة عدد الصناعيين والتجار والمزارعين، كما حسّنت ماريا تيريزا أوضاع المزارعين والقرويين. وتدخلت ماريا تيريزا في تفاصيل اجتماعية بسيطة، مثال على ذلك حددت ما هو مسموح ارتداؤه من الألبسة وما هو غير مسموح، وأولت اهتماماً كبيراً لتطوير النظام التعليمي في الإمبراطورية، وضعت ماريا تيريزا اللبنة الأولى لـ إلزامية التعليم.
بالإضافة إلى ذلك فقد تغير وجه فيينا في عهدها فتأسس مسرح لعامة الشعب، وتم رصف الشوارع والاعتناء بها.[38]
استطاعت ماريا تيريزا بفضل اصلاحاتها أن تجعل من فترة حكمها عصراً ذهبيا للإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية وارتبط الاصلاح والتحديث باسمها على مر الفترات اللاحقة.

ماريا تيريزا تغير المعادلات:

كان حجر الأساس في سياسة الأسرة الهابسبورغية منذ صعودها إلى العرش الإمبراطوري هو العداء لفرنسا، ووجهت كل امكاناتها لنسج تحالفات ضد فرنسا، ولترسيخ هذه التحالفات عقدت أسرة الهابسبورغ سلسة من عقود الزواج السياسي، بدأت منذ عام 1494 عندما اجتاحت القوات الفرنسية ايطاليا وهددت مصالح الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية وإسبانيا، وهذا ما دفع القيصر ماكسيمليان الأول (1495–1519) و ملك اسبانيا فرديناند (1452–1516) وزوجته ايزابيلا (1451–1504) لعقد تحالف سياسي ضد فرنسا، وتوّج هذا التحالف بعقد زواج سياسي بين الأسرتين الحاكمتين في اسبانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية"[39] كان نتيجة هذا الزواج أن أصبح شارل الخامس (1500–1558) حفيد القيصر ماكسيمليان والملك فرديناند، ملكاً على إسبانيا عام 1516، وقيصراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية في عام 1519 ومنذ ذلك الوقت والعداوة تزداد ضراوة بين أسرة الهابسبورغ وفرنسا.[40]

استمر العداء بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" مئات السنين حتى أتت ماريا تيريزا واحدثت "ثورةً سياسيةً"[41] في علاقاتها مع أسرة البوربون (الأسرة الملكية الفرنسية) في عام 1750 عندما عقدت تحالفاً سياسياً مع أسرة البوربون بكل فروعها ضد بروسيا وانكلترة ولتوثيق هذا التحالف، و كما هو متعارف عليه في تاريخ الأسرة الهابسبورغية تم إبرام سلسة من عقود الزواج السياسي بين أسرة الهابسبورغ وأسرة البوربون، وكان عرّاب هذه العقود مستشار ماريا تيريزا، فينتزل انطون (1711–1794) والذي بدأ المحادثات السرية مع الأسرة الملكية في فرنسا (أسرة بوربون) في عهد الملك لويس الخامس عشر (1710–1774). وكان أول عقد زواج احتفلت به بين الأسرتين في عام 1760، هو حفل زفاف ابن ماريا تيريزا البكر جوزيف من ايزابيلا من أسرة البوربون الحاكمة في بارما في ايطاليا، والتي كانت في نفس الوقت حفيدة الملك الفرنسي لويس الخامس عشر.

[38] https://www.dw.com/de/300-jahre-maria-theresia-strategin-mutter-reformerin-httpwwwmariatheresia2017at/a-37865602
[39] - Brandi, Karl: Kaiser Karl V. Werden und Schicksal einer Persönlichkeit und eines Weltreichs, Bd. 1, München, 1964 (erstmals erschienen 1937), S. 33.
[40] - Rassow, Peter: Die Kaiser-Idee Karls V., dargestellt an der Politik der Jahr 1528-1540, Berlin, 1932, S. 9f.
[41] - Duchhardt: Barock und Aufklärung, S. 122.

اما الزواج الثاني بين العائلتين فكان في عام 1765 (في نفس العام الذي توفي فيه القيصر فرانس الأول ستيفان) بين الولد الثاني لماريا تيريزا، ليوبولد، وابنة الملك الاسباني شارل الثالث(1716–1788) وهو من أسرة البوربون أيضا. من المفيد ذكره أن القيصر فرانس الأول ستيفان لم يكن راغباً في هذا التقارب مع أسرة البوربون لانه لم يكن يثق بهذه الأسرة و وصف هذا التحالف "بالمعاند للطبيعة" وبسبب الخلاف مع زوجته ماريا تيريزا حول هذا الموضوع ابتعد عن التدخل في السياسة. وفتحت وفاته في عام 1765 الباب على مصراعيه أمام استمرار سياسة التحالفات مع أسرة البوربون. فقامت ماريا تيريزا في عام 1768 بتزويج ابنتها ماريا كارولينا لملك نابولي وصقلية فرديناند الرابع (1751–1825) وهو أيضا من أسرة البوربون. استمرت ماريا تيريزا في نسج المصاهرات مع أسرة البوربون فزوجت ابنتها ماريا ايميلي في عام 1769 من فرديناند حاكم بارما الايطالية، وتوجت ماريا تيريزا سلسلة عقود زواج أولادها وبناتها مع أسرة البوربون بأهم عقد زواج على الاطلاق في عام 1770 وهو أكثر زواج لبى طموحاتها، هو عقد زواج ابنتها الأصغر ماري انطوانيت (1755–1793)، الغنية عن التعريف، والملك الفرنسي المستقبلي لويس السادس عشر(1754–1793 الذي أصبح ملكا منذ عام 1774). وهكذا تكون ماريا تيريزا قد نسجت تحالفاً صلباً من المستحيل أن يتزعزع مع الأسرة الملكية في فرنسا وقلبت كل المعادلات والتحالفات السابقة لأسرة الهابسبورغ.[42]

حرب السنوات السبع 1756–1763:

كان الانقلاب السياسي الذي أحدثته ماريا تيريزا ونسجها لعلاقات المصاهرة، والتحالف مع فرنسا من أحد الاسباب البعيدة لحرب السبع سنوات. وكان هجوم الملك البروسي فريدريك الثاني على ساكسونيا في آب عام 1756 بمثابة انفجار برميل البارود الذي تبعه العديد من الانفجارت،[43] وايذاناً بالانتقال من الحرب الباردة إلى الحرب الحامية الوطيس بين ماريا تيريزا وفريدريك الثاني، أو ما يسميه المؤرخون حرب سيليزيا الثالثة. فريدريك الثاني بهجومه هذا وضع أوروبا على حافة الهاوية لأنه ما لبثت بقية الدول الأوروبية أن انخرطت في هذه الحرب، وعلى رأس تلك الدول فرنسا وبريطانيا وروسيا، فقد تنازع كل من بريطانيا وفرنسا على شمال أمريكا والهند وعلى طرق التجارة والأهم من ذلك كله كانت المصالح الاقتصادية للبلدين المحرك الأساسي لانخراطهما في الحرب، لذلك تحالفت بروسيا مع انكلترة، وتحالفت فرنسا مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية" وانضمت كل من روسيا والسويد لهذا التحالف.[44] استولت قوات فريدريك المدربة والمعدة بشكل ممتاز على ساكسونيا في عام 1757، لكن سرعان ما أثبتت قوات ماريا تيريزا جدارتها واستطاعت طرد القوات البروسية من ساكسونيا في أيار من نفس العام، لكنها فشلت في استعادة سيليزيا، واستمرت هذه الحرب حتى شهر شباط عام 1763 وانتهت بتوقيع معاهدة الصلح بين الأطراف المتحاربة في مدينة هوبيرتسبورغ . هذا الصلح أنهى حرب السنوات السبع أو حرب سيليزيا الثالثة وثبّت ملكية سيليزيا لبروسيا، وبذلك كان سقوط مئات الآلاف من الناس قتلى في هذه الحرب بدون أي جدوى على مستوى الجغرافية، لكنها ضمنت لبروسيا مقعدا بين القوى الكبرى في أوروبا.[45]

[42]_ https://www.habsburger.net/de/kapitel/maria-theresia-die-schwiegermutter-europas
[43] _ Duchhardt: Barock und Aufklärung, S. 123.
[44] _ Vierhaus: Staaten und Stände, S. 332.
[45] _ Möller, Horst: die Deutschen und ihre Nation, Fürstenstaat oder Bürgernation, Deutschland 1763ß1815, Münschen, 1989, S. 39.

سنوات ماريا تيريزا الأخيرة:

كانت وفاة القيصر فرانس الأول ستيفان بشكل مفاجئ في مدينة انسبروغ 1765 صدمة كبيرة بالنسبة لماريا تيريزا، وأثرت هذه الصدمة عليها طيلة ما تبقى لها من العمر، فدخلت في حالة حزن شديد وقصت شعرها وجعلته قصير جداً وارتدت وشاح الحداد بشكل دائم، وانعزلت عن التواصل مع الناس تدريجياً، لكنها لم تفلت زمام الحكم من يدها وأدارت الإمبراطورية إلى جانب ولدها جوزيف الثاني الذي خلف والده على عرش الإمبراطورية، لكنها اختلفت مع ولدها حول الكثير من القضايا، وعارضته في كثير من الأمور، وانتقد جوزيف تصرفات والدته ووصفها بالمحافظة. ومع الوقت أثر العمر على ماريا تيريزا بشكل واضح وتوفيت في 29 تشرين الثاني 1780 في فيينا وهي مرتدية معطف زوجها فرانس الأول ستيفان.[46]

الخاتمة:

شهد عصر ماريا تيريزا كثيراً من المؤامرات الخارجية، والحروب الطويلة والقاسية، لكنها وبالرغم من خسارتها أقليم سيليزيا الاستراتيجي إلا أنها استطاعت أن تتأقلم مع كل المشاكل التي واجهتها وقلبت المعادلات السياسية عن طريق تحالفاتها مع أسرة البوربون والملكية الفرنسية. إن ماريا تيريزا الانثى الوحيدة التي نجحت بقيادة أسرة الهابسبورغ الإمبراطورية، ولم يتوقع أحد من معاصريها أنها ستنجح في المهام الملقاة على عاتقها، لتفاجئ الجميع بحنكتها ورصانتها ومثابرتها على العمل، فقد تحول قصرها في فيينا إلى خلية عمل لا تعرف الراحة. فسطرت بإصلاحاتها عهداً ذهبياً تميّز بالازدهار في كافة المجالات، ودفع شعبها لتخليد اسمها في كل مكان. لذلك فإن ماريا تيريزا تعد استثناءً في تاريخ الأسرة الهابسبورغية و الإمبراطورية الرومانية المقدسة "للأمة الألمانية".

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

1- Almaqrahi, Milad: Modern European History 1453-1948, Qan Yonus University, Binghazi, 1996,

المصادر والمراجع الأجنبية:

1-Badinter, Elisabeth: Maria Theresia die Macht der Frau, Wien, 2017.
2- Burkhardt, Johannes: Vollendung und Neuorientierung des frühmodernen Reichs 1648-1763, Stuttgart, 2006.
3- Brandi, Karl: Kaiser Karl V. Werden und Schicksal einer Persönlichkeit und eines Weltreichs, Bd. 1, München, 1964.
4- Duchhardt, Heinz: Barock und Aufklärung, München 2007.
5- Duchhardt, Heinz: Altes Reich und Europäische Staatenwelt 1648-1806, München, 1990.
6- Goldsmith, Margaret: Maria Theresa of Austria, London, 1936.
7- Gotthard, Axel: Das Alte Reich. 1495-1806, 2. Aufl., Darmstadt, 2005.
8- Kotulla, Michael: Deutsche Verfassungsgeschichte, Vom Alten Reich bis Weimar (1495-1934), Berlin, 2008.
9- Möller, Horst: die Deutschen und ihre Nation, Fürstenstaat oder Bürgernation, Deutschland 1763ß1815, Münschen, 1989.

[46]_ **https://www.habsburger.net/de/kapitel/maria-theresias-letzte-jahre-witwenschaft-und-tod**

10- Rassow, Peter: Die Kaiser-Idee Karls V., dargestellt an der Politik der Jahr 1528-1540, Berlin, 1932.
11- Vocelka, Karl: Geschichte Österreichs, Kultur- Gesellschaft- Politik, Wien, 2000.
12- Vierhaus, Rudolf: Staaten und Stände vom Westfälischen bis zum Hubertusburger Frieden 1648 bis 1763, Berlin, 1984.
13- Zeumer, Karl: die Golden Bulle Kaiser Karls IV., Weimer, 1908.

المواقع الالكترونية:

1- https://www.habsburger.net/de/personen/habsburger-herrscher/karl-vi
2_https://bmi.gv.at/magazinfiles/2017/03_04/files/300%20jahre%20maria%20theresia.pdf
3- https://www.habsburger.net/de/personen/habsburger-herrscher/maria-theresi
4- https://www.habsburger.net/de/kapitel/franz-stephan-der-lothringer-wien
5-https://www.habsburger.net/de/personen/habsburger-herrscher/franz-i-stephan-von-lothringen
6-https://www.habsburger.net/de/kapitel/franz-stephan-als-begruender-der-dynastie-habsburg-lothringen
7-https://www.habsburger.net/de/kapitel/franz-stephan-als-kaiser-des-heiligen-roemischen-reiches
8- https://www.geschichtewiki.wien.gv.at/Maria_Theresia
9- https://www.habsburger.net/de/kapitel/der-oesterreichische-erbfolgekrieg
10-https://www.dw.com/de/300-jahre-maria-theresia-strategin-mutter-reformerin-http-wwwmariatheresia2017at/a-37865602
11-https://www.habsburger.net/de/kapitel/maria-theresia-die-schwiegermutter-europas
12-https://www.habsburger.net/de/kapitel/maria-theresias-letzte-jahre-witwenschaft-und-tod